فـهـم الـنص

إن محوري الأدب الإبداعي و النقدي يتسايران مع بعضها و في كل مرة يجدد النقد أدواته لا لشيء إلا ليفهم النصوص كيفما كانت شعرية أو روائية أو قصصية، وقد عرف النقد العديد من المناهج و المقاربات وصولا إلى ما يسمى بنظرية القراءة و التي يرى فيها النقاد حاليا الرجل المناسب لتحقيق فهم النصوص و ذلك كونها ترتكز على معاني النص لا على محيط مؤلفه أو تعداد علاقاته اللغوية،و يعتبر القارئ حجر الأساس في هذه النظرية لذا يجب أن يكون قارئا مثاليا تتوفر فيه عدة شروط حتى يتوصل بنا إلى تأويل صحيح من خلال فهمه و من ثم يتولد لنا من خلال قراءته نص جديد، ففهم النص بالدرجة الأولى يعتمد على القارئ و مهارته الفكرية و الثقافية و المعرفية.

قطع النقاد شوطا كبيرا في محاولة سبر أغوار النص الأدبي و الوصول إلى فهمه، و هذا من خلال اعتمادهم على عدة مقاربات ركزت في كل مرة على محور من محاور العملية الأدبية و المتمثلة في: المُنتِج و النص و القارئ، فظهرت المناهج النقدية وفق المخطط التالي:

عناصر العملية الأدبية

المُنتِج	النص	المتلقي
منهج حاول فهم النص من خلال الظروف المحيطة بمُنتِجه	منهج حاول فهم النص من خلال العلاقات الموجودة بين وحداته اللغوية المشكلة له	منهج حاول فهم النص من خلال المتلقي و علاقته بالنص
(المناهج السياقية)	(المناهج النسقية)	(نظرية القراءة و التأويل)

من خلال هذا المخطط يظهر لنا أن زاوية النظر للنص هي التي حددت المقاربة المنهجية له على مدى تعاقبها، ولعل الدرس النقدي الآن وقف على الجهة المقابلة لمُنتِجِ العمل الأدبي و هو القارئ.

ولا تعد الدراسات الكثيرة في مجال نظرية القراءة مكتملة إلى الحد الذي نعتبرها منهجا بحد ذاته، و لكن المفاهيم المتوصل إليها كافية نوعا ما لمقاربة أي نص أدبي، و سنعرض فيما يلي بعض أسس و معارف هذه النظرية التي تودي بنا إلى فهم النص.

<u>مفهوم نظرية القراءة:</u>

إن كل دراسة أو منهج وفد إلى الدراسة النقدية الأدبية إلا و له جذور في المذهب الفكري السائد آن ذاك، و لعل المذهب الفكري الذي يعزى إليه ظهور نظرية التلقي هو تلك النقلة من الماركسية إلى البرجوازية، فالنظرية بهذا المفهوم الفكري تمثل"صراعا بين نظام ديمقراطي يخضع للنشاط الفردي ـ على اختلاف أنواعه ـ بحرية مصونة من جبرية الطبقة، و نظام شيوعي يتحدد فيه نشاط الفرد طبقا لجبروت الطبقة"[1] و غذي هذا الصراع بألمانية بواسطة ذاك الاختلاف الذي عرفته ألمانيا الشرقية و ألمانية الغربية، هذه الأخيرة التي كانت من أشد المعارضين للنظام الماركسي[2] . و هذا الصراع الفكري نقله أصحاب الأدب إلى المجال النقدي.

و يبحث آخرون في الجذور التاريخية لهذا المفهوم فنجد أن"الهرمونيوطيقا مصطلح قديم ظهر في اللاهوت الكنسي بمعنى، بمعنى مجموعة القواعد التي يعتمد عليها المفسر في فهم الكتاب المقدس، غير أن مفهومه اتسع بالتدريج فشمل دوائر أخرى تستوعب بجوار الدراسات اللاهوتية العلوم الإنسانية و النقد الأدبي و فلسفة الجمال و الفولكلور. و قد وضعه أرسطو كجزء من أجزاء المنطق و يعني "العبارة" ثم تطور معناه ليكون "تفسير العبارة" ... فالشخص الذي يفسر نصا يلون هذا النص بتفسيره له و فهمه إياه إذ إن المتفهم للعبارة هو الذي يحدد بشخصيته المستوى الفكري لها و هو الذي يعين الأفق العقلي الذي يمتد إليه معناها و مرماها"[3] .

و نخلص من خلال لمنطلق الفكري و التاريخي لهذه النظرية أنها في مفهومها العام نشاط فردي؛ و تكمن فرديتها في كون القارئ مسؤول عن تفسير النص أما نشاطها فيتمثل في أن القارئ يجب أن يكون على وعي فكري و اجتماعي و نفسي و ثقافي و لغوي و غيرها ليتمكن من الوصول إلى مرحلة الفهم أين يشتغل بإعطاء النص صبغة جديدة من خلال إضافاته.

و ترتكز هذه النظرية على أساسين هما: النص و القراءة، و التفاعل بينهما يوصلنا إلى مرحلة الفهم.

1. **النص:** و هو الوحدة التي تمثل الطرف الأول في عملية الاتصال كونها هي التي تحمل الرسالة المؤثرة في القارئ، و بهذا فهو الكائن الذي يرتكز عليه المتلقي، و لم يضبط هذا المصطلح بمفهوم واحد بل انفتح على عدة مفاهيم سنورد بعضها في محاولة إيجاد مفهوم عام له:

يعرفه بينكر بأنه:" تتابع مترابط من الجمل، و يستنتج من ذلك أن الجملة بوصفها جزءا صغيرا ترمز إلى النص، و يمكن تحديد هذا الجزء بوضع نقطة أو علامة تعجب ثم يمكن بعد ذلك وصفها على أنها وحدة مستقلة"[4] ؛ هذا التعريف ينطلق في تعريفه للنص من خلال حجمه أو من خلال أنه وحدة أكبر من الجملة في حين تعتبر هذه الأخيرة جزءا منه و تشارك في تشكيله، و نجد هيرتمان يعرفه من زاوية

أخرى فيقول:" هو علامة لغوية أصلية، تبرز الجانب الإتصالي و السميائي"[5] ؛ و لعل هيرتمان أبرز الجانب اللغوي للنص في تعريفه و لكنه لم يهمل الهدف الأساسي من النص و هو الاتصال،فالنص فعل اتصالي يستوجب متلق في حين أن ذلك المتلقي سيفتح النص من خلال ممارسته السميائية عليه بفك رموزه و علاماته، و بهذا التعريف يبدأ الانحراف في زاوية النظر التي من خلالها يُعرف النص إلى أن يعرفه بارت بقوله:"النص نشاط و إنتاج ... النص قوة متحولة،تتجاوز جميع الأجناس و المراتب المتعارف عليها، لتصبح واقعا نقيضا يقاوم الحدود و قواعد المعقول و المفهوم،إن النص - و هو يتكون من نقول متضمنة و إشارات و أصداء لغات أخرى و ثقافات عديدة - تكتمل فيه خريطة التعدد الدلالي.إن النص مفتوح،ينتجه القارئ في عملية مشاركة لا مجرد استهلاك.هذه المشاركة لا تتضمن قطيعة بين البنية و القراءة،و إنما تعني اندماجهما في عملية دلالية واحدة،فممارسة القراءة إسهام في التأليف"[6].من خلال هذا التعريف نرى أن بارت يطل على تعريف النص من نافذة المتلقي فهو يعطيه مكانا جوهريا في النص،إذ يعتبر هذا الأخير تحولا من الدلالات المتعارف عليها و التي تفرزها تراكيب اللغة إلى دلالات يشارك القارئ في إبرازها بل و يتعدى الإبراز إلى تأليف إنتاج جديد لكن في إطار ثقافة النص،ومن هنا يحيلنا هذا التعريف إلى الأساس الثاني المعتمد في نظرية الفهم و هو القراءة.

2. **القراءة:** و تظهر القراءة ممثلة بالمتلقي أو القارئ كونه الفاعل في هذه العملية،لكن دوره لا يقتصر على إدراك المعنى السطحي و حسب،بل يتعداه إلى إبراز معنا آخر لا نجده ظاهرا في النص،فالنص يحتوي معنيين على حد قول إيكو"فإن النص يتميز عن الأنماط الأخرى من التعبير بتعقده الكبير،و السبب الأساسي في ذلك هو أنه نسيج من المسكوت عنه

"فالمسكوت عنه" يعني عدم الظهور على السطح على مستوى العبارة"[7] إن هذا القول لإيكو يفرز لنا نوعين من القراءة هما:القراءة السطحية و القراءة العميقة، وبهاذ يجد القارئ نفسه أمام مهمتين:

- **<u>الإدراك المباشر:</u>** و هي المرحلة الأولى في التعامل مع النص،و نقصد بها فهم الهيكل الخارجي الذي تفرزه المعطيات اللغوية من خلال الرموز و الإشارات،و كذا المعطيات الأسلوبية، و بهذا يكون القارئ قد وقف على مهمة التفسير و حسب[8]،لكن هذه القراءة مؤدية بدورها إلى المهمة الثانية و هي الاستذهان.
- **<u>الاستذهان:</u>** و هي المرحلة التي يبدأ فيها القارئ بإعمال عقله و خياله لاكتشاف عالم لم يتفطن لوجوده في المرحلة الأولى،و هي المرحلة نفسها التي يشارك من خلالها القارئ في بناء معنى النص و ذلك من خلال سد و ملء تلك الفراغات التي يصادفها،و إزالة الغموض و الإبهام[9] من طريقه للوصول إلى استكمال الغائب من النص،و يصبح بذلك أمام نص جديد شارك هو في صناعة معناه،و نشير هنا إلى ذاتية كل قارئ أثناء تعامله مع النص.و لكن هذه المرحلة الثانية من القراءة ليست في متناول أي قارئ عادي،بل يجب أن يكون القارئ

1. على قدر معرفي و ثقافي و لغوي يخوله للغوص في معاني النص و الإضافة إليها.
2. متخلصا من التزامه الأيدلوجي،الذي إن لم يتخلص منه حاد عن القراءة الصحيحة للنص[10].

إن وصول القارئ إلى مرحلة التأويل و صياغة نص جديد و فق المعايير المحددة،يعتبر فهما للنص(لا نقصد بالفهم المعنى الدقيق الذي أراده الكاتب لنصه).

فهم النص حسب اعتقادي لا يَتَأَتَّى إلا من خلال الإحاطة بكل العوامل المحيطة ببيئة إنتاجه و لغة إنتاجه و طريقة تلقيه،متكاملة مع بعضها،و يمكن لذلك أن يتحقق من خلال نظرية القراءة و بالتحديد بالاعتماد على القارئ،الذي ينبغي أن يكون محيطا بالبيئة التي ولد فيها النص ـ لا مؤلف النص ـ ثم يجب أن يتسلح بالقدرة على كشف تلك العلاقات التي تربط الوحدات اللغوية للنص،ثم يتمكن من خلالهما من الغوص في أعماق النص و سد الفراغات الموجودة به ليحقق الفهم و يعيد صياغته في نص جديد.و المخطط الآتي يوضح كيفية تكامل هذه العناصر فيما بينها:

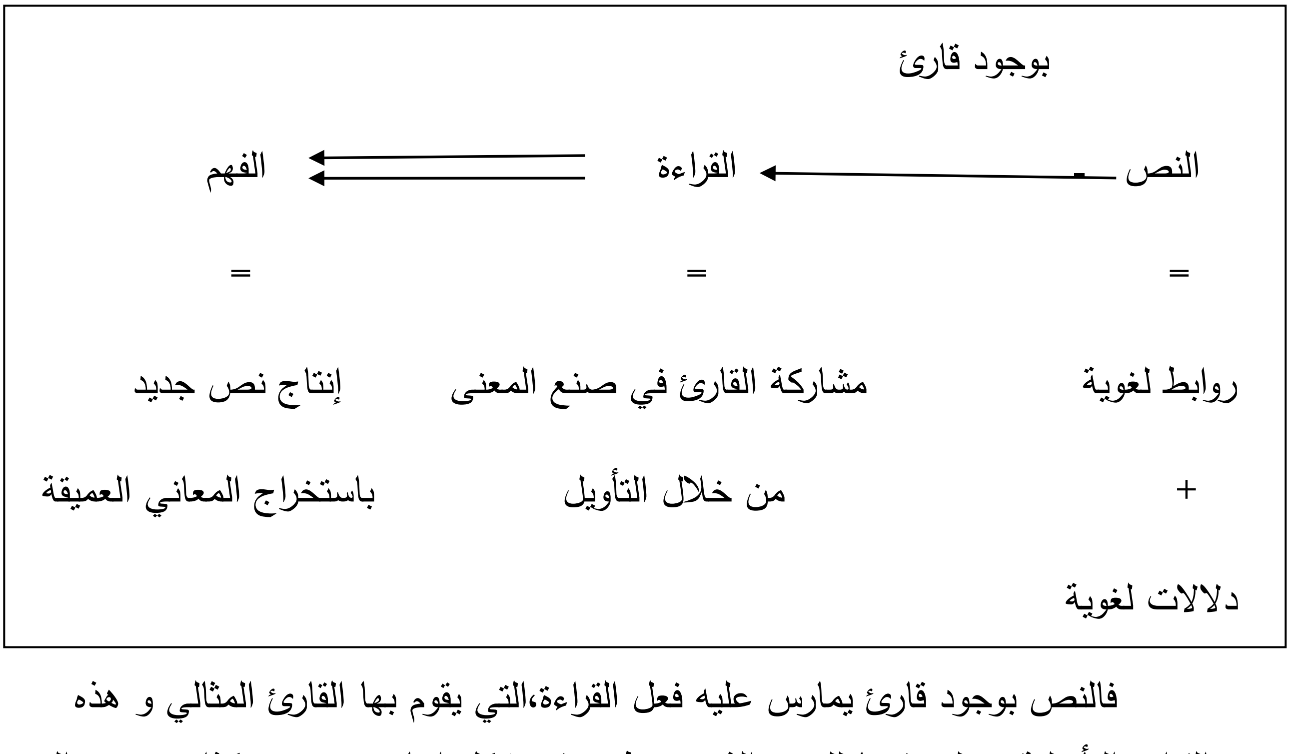

فالنص بوجود قارئ يمارس عليه فعل القراءة،التي يقوم بها القارئ المثالي و هذه القراءة التأويلية تستلزم فهما للنص الذي يتمظهر في شكل إنتاج جديد و هكذا يستمر توالد النصوص فيما بينها مع كل قراءة جديدة يولد فهم جديد.

الهوامش:

1. د.محمد عباس الواحد،قراءة النص و جماليات التلقي،مصر:دار الفكر،1996،ص17.
2. نفسه،ص16.
3. مجلة الوعي،عدد:4677،الكويت،وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية.
4. د.سعيد حسن بحيري،علم لغة النص المفاهيم و الاتجاهات،1997،مكتبة لبنان ناشرون،الشركة المصرية العالمية للنشر،ص103.
5. نفسه،ص108.
6. نفسه،ض113,
7. د.أحمد بوحسن،نظرية الأدب،الرباط:دار الأمان،2004،ص30.
8. ينظر: د.محمد عباس الواحد،قراءة النص و جماليات التلقي،مصر:دار الفكر،1996 ،ص22.
9. ينظر نفسه،ص23.
10. ينظر نفسه،ص20.